

جلالة الفاروق

ولويس الرابع عشر

للدكتور محمد غلاب



الآن ، وبعد أن تكسرت على صخرة أحداث المفاوضات موجة التأثير التي أثارها في النفوس التجاء ملك إيطاليا التجرد من عرشه إلى مصر ، فإننا نستطيع أن نرسم في إيجاز تلك العاطفة التي أحسنا بها عند ما طالعنا في الصحف وصف تلك الحفاوة الملكية الرائعة التي استقبل بها عاهل أرض الكنانة ذلك الملك البعد عن بلاده . ولقد كانت في طبيعة تلك الأحاسيس التي شعرنا بها حين قرأنا هذا النبأ عاطفة النشوة الناجمة عن الإحساس بأن مصر قد بدأت تسترد عزتها الدائرة ، وتستعيد عظمتها الغابرة ، وأن أشمة هذا الأمل المذب قد أخذت تتمثل في استمداد وادي النيل لإيواء الملوك اللاجئين والأمراء البعدين ، ولم لا ؟ ألم يكن من أبرز مفاخر فرنسا إلى هذه السنين الأخيرة أنها قبلة اللاجئين ، وغاية المهاجرين ، ولا سيما الملوك والأمراء الذين لأمر ما تمذر عليهم الثواء في بلادهم . ولا جرم أن في هذه الخاصية من خصائص الدول معنى من أبهى معاني الرفعة والسمو ، لأنه يلطف آلام فريق من أولئك النساء ، ويحيي الأمل في نفوس فريق آخر منهم ، ويشعر فريقاً ثالثاً بأن الإنسانية لم تتحول كلها إلى وحوش منارية ، لأن الإكرام العمل والحفاوة الواقعية يتركان في النفوس من محمود الأثر ما تعجز عن تأديته العبارات المسولة التي لا تكاف التفهيقين بها كثيراً ولا قليلاً . ونحن إذا نظرنا إلى هذه الظاهرة نظرة عميقة ألفينا أن الفضل الأول فيها عائد بالذات إلى حضرة صاحب الجلالة ملكنا المفدى الذي عرف كيف يكشف أسرار عظمة الدولة ، ثم يطعمها بطابع خاص تتحقق فيه الدقة والرفقة والمثالية إلى جانب ثماره الأساسية ، وهي المجد والفخار والخلود . وكيف لا تكون هذه الساحة النادرة ، وتلك البشاشة النبيلة ، وذلك الإكرام الكامل من الأمور المثالية في هذا العصر الذي كانت الإنسانية فيه

— مع الأسف الشديد — تفقد كل معالمها ، والذي أصبح فيه الشغل الشاغل لأكثر الدول هو التفكير في وسائل ونتائج الاستيلاء على حقوق الغير واغتصاب ممتلكاتهم الشرعية تارة في مجون واضح وصفافة بغيضة ، وأخرى تحت ستار الدفاع عنهم أو تحيين حالاتهم الاجتماعية .

وفوق ذلك ، فإن هذه الحادثة قد أعادت إلى مخيلتي ذكريات تلك المحامد النبيلة التي انفراد بها الشرق ، وهي البشاشة التقليدية والسخاء الموروث وإكرام الضيف دون أية آلة أخرى غير الالتذاذ النفساني بتحقيق العمل المجيد وما إلى ذلك من المواطن المالية التي أوشكت واقعية عصرنا الحاضر أن تسحب عليها أذيال النسيان .

أسند بعض الكتاب ذلك المظهر الملكي الجليل الذي استقبل به ملكنا ضيفه اللاجئ الأخير إلى فضيلة عرفان الجليل من جانب جلالاته نحو أسرة ساقوا ، وتلك بلارب عاطفة جليلة جديرة بأن تدفع النفوس الملكية أكثر من غيرها إلى رد خير الصنيع إلى أهله ، ولكن أليس تحليل أولئك الكتاب هذا المظهر الفاتن بتلك العاطفة وحدها يخفى كثيراً من جوانبه الأخرى الخلاصة وعناصره الجوهرية التي نحن على يقين من أنها قامت بدور أساسي في تصرف جلالة مولانا الملك وبواعثه ؟ ومن هذه العناصر الأولية التي غفل عنها أولئك الكتاب تلك الدوافع التي فطرت عليها النفوس النبيلة والطباع الكريمة ، والتي لا تزال تنمش ذوى المحاند المريقة وتدفعهم إلى القيام بالأفعال الخليقة بالخلود في ذاكرة التاريخ تتخذ منها الكافة نبراسها في دياجير الحياة ، وتجذب فيها الخاصة دروساً في العظمة ، والتي تنشئ لدى الشعوب ملكة تذوق المجد المجرد من النغمة ، وهل يحسب أولئك الذين طفت عليهم روح الواقعية أنه من الممكن أن تستغنى الإنسانية عن هذه الأحاسيس السامية ، وأن تكفى بتلك الدنية المادية مهما بلغت أعلى آواج السطوع والإخصاب ؟

نحن لا نحسب أن الإنسانية مقصورة على هذه الروح الواقعية منحصرة في هذه الدائرة العملية الضيقة ، وإلا فلأهو سر جاذبية تلك الصور التاريخية الساحرة التي فن جلالها القلوب ، وخب سموها النفوس ، والتي قدمت إلى أهل الحياة العملية فريقاً آخر

يبد أن ذلك الملك السبيء الحط بعد أن وازن بين الحالتين رجح الانتحاء إلى فرنسا لثقتة بنبل مليكها وكرم خلقه ، وسمو طبعه . وفي أواخر ديسمبر سنة ١٦٨٨ نجحت ملكة إنجلترا وولدها ولي العهد في اجتياز المانش إلى كاليه بفضل تلك المحاولة الجريئة التي قام بها أحد النبلاء الفرنسيين ، وهو دوق دي لوزان مدفوعا إلى ذلك بالشهامة البريئة التي تتغلغل في فطرته النقية من الملل النفعية . ولما كان الملك قد وعداها أن يلحق بها في كاليه فقد انتظره هناك بعض الوقت ، ولكن لويس الرابع عشر لم يلبث أن بث إليها بؤس كبح نغم يحف بها إلى باريس لتتظرد رفيق حياتها في العاصمة مكرمة معززة . وفي اليوم السادس من يناير سنة ١٦٨٩ وصلت الملكة وولدها إلى ضواحي باريس ، فلم يكن من ملك فرنسا - وهو ذلك الملك الأريستوقراطي النزعة - إلا أن انتقل ترافقه حاشيته لاستقبالها ، وعند ما لح المركبة الملكية رجل واتجه إليها ، فماتق ولي العهد في حنان أبوى ثم هردول إلى الملكة ، وبعد أن حياها بحية رقيقة مفعمة بالاحترام والاكبار ، أصددها إلى مركبته وأجلسها إلى يمينه كما تقتضى أرق مراتب الذوق واللياقة . ولما وصلوا إلى العاصمة وضع ذلك الملك الكريم تحت تصرف ضيوفه قصر سان جيرمان ، وهو ثانى قصر في الدولة بعد قصر فرساي ، ثم بذل كل ما في وسعه لإسعادها وللحيلولة بينهما وبين الشهور بضيعة أدنى الكمالات . وفي أثناء رحلة الملكة إلى باريس ظفر زوجها بعد عناء شديد بنعمة الوصول إلى الساحل الفرنسى .

وفي اليوم السابع من يناير وصل بدوره إلى ضاحية سان جيرمان حيث كان لويس الرابع عشر في انتظاره . وعند ما أعلن قدومه أسرع لاستقباله وتماثقا عناقا مؤثرا أحس أثناءه ملك إنجلترا بالحقيقة المرة وقدر منزلته الراهنة تجاه أعظم ملوك الدنيا في عصره ، فأحنى حتى ركبتى لويس الرابع عشر ، ولكن هذا الأخير تأثر كثيرا وأبى أن يعامله إلا معاملة الند للند ، وبعد أن تسارعا مليا اقتاده إلى حيث تقيم قرينته وولده ثم ودعه قائلا له : « هذا هو منزلك تستقبلنى فيه كما أستقبلك في فرساي » . ولم يكتف ذلك الملك الجليل بهذه البشاشة الفاتحة ، وإنما خصصه الأيام التي تلت يوم قدوم ضيفه الكبير للاحتفالات بمقدمه

من البشرية ضحوا براحتهم وهدوئهم ، بل بحياتهم أحيانا في سبيل الشهامة والمروءة الثاليتين . وهكذا لم أطالع في الصحف نبأ تلك الحفاوة الرائعة المؤثرة التي قام بها جلالة مليكنا القدى نحو ملك عريق مهاجر من وطنه حتى أحسست بذكريات تنبثق من غياهب التاريخ وتنقذ إلى ذاكرتى ، وسرعان ما أحسست بتوثق وجه الشبه بين تلك الأحداث التي طوت المصور ممثليها ولم تقو على محوها من سجل الزمن ، وبين ذلك الحادث الكريم الرفيع . واقد كان في طليعة هذه الذكريات الخالدة حفاوة لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم بجاك الثانى ملك إنجلترا حين قلب له الدهر ظهر الجن .

ومجل ذلك أنه لم تكسد سنة ١٦٨٨ تشرف على الانتهاء حتى كانت الثورة الإنجليزية الثانية قد بلغت أقصى حدودها وأعلن الثوار - في مقدمة ما عابوه على مليكهم جاك استوارت - أنه كاثوليكي ، وأن الأمة پروتستانتية ، فلا يبنى أن يجلس على عرشها من اختلف دينه مع دينها ، ثم دعوا للملك عليهم الأمير الهولاندى جيوم الثالث . وعلى أثر زول هذه الكارثة بالأسرة المالكة ، كان ذلك الملك المنكوب بين عاملين متعارضين : أحدها يدفعه إلى الانتحاء إلى فرنسا والاحتماء بياهلها الأعظم والعيش في كنفه المنيع ، وهو عامل الصلة الأسرية التي كانت تربطه بالبيت المالك فيها . والعامل الآخر هو ذلك العداء الذى كان مستحكما بين دولتيهما في ذلك الحين ، إذ أن شارل الثانى والده هذا الملك التمس كان قد أعلن الحرب على فرنسا في سنة ١٦٧٨ أى قبل هذه الصدمة بنحو عشرة أعوام . وأكثر من هذا أن شارل الثانى نفسه كان يحنق على فرنسا حنقا خاصا ويمحدها على أسطولها ، وأنه سجل هذا الشعور الإنجليزي التقليدى البينىض الذى يجرى في نفوس أفراد هذا الشعب جريان الدماء في أوردهم وصوره في هذه العبارات التالية :

« إن كبرى العقبات التي تعترض سبيل الحلف الفرنسى هي تلك العناية العظمى التي يبذلها الفرنسيون الآن لينشوا لهم كيانا تجاريا ، وليكونوا قوة بحرية تفرض إرادتها : إذ أن كل خطوة تخطوها فرنسا في هذه السبيل ، تخلد الحسد بين هاتين الدولتين » .